واجبنا القومي

للدكتور محمد فؤاد السيد

لا يقتصر واجب الفرد نحو الوطن الذى يعيش فيه والأمة التى ينتمى إليها على إطاعته قانون وطنه ومبادرته بأداء ما يفرض عليه من الضرائب ، ولكنه يشمل كثيرا من الواجبات الأخرى التى لا تقل عن هذين شأنا فى النهوض بوطنه وقومه . ولعل من أهم هذه الواجبات وأبعدها أثرا شعور الفرد بالواجب القومى وحرصه على أدائه .

والشعور بالواجب القومى هو شكل راق لإحدى الغرائز الطبيعية وهى ما يسميها علماء النفس غريزة الجماعة (herd instinct) وهى الغريزة التى تدفع الأفراد إلى تكوين جماعة تتحد فى الرأى والميول والطباع ، ويتحد أفرادها فى السعى لخير بعضهم بعضا ، ولخير الجماعة نفسها ، كما تتحد الجماعة معهم فى العمل لما فيه خيرها وخير الأفراد .

وليست هذه الغريزة مقصورة على الإنسان وحده ، فاننا نشاهد مظاهرها فى كثير من أنواع الحيوان ، وفى بعض الأحوال تبدو قوية منظمة تثير الدهش والإعجاب كما هى الحال فى النمل والنحل والطيور الرحالة .

وقد يلوح أن من الغريب أن تظهر هذه الغريزة قوية فى بعض أنواع الحيوان ، ضعيفة فى بعض جماعات الإنسان . ولعل من المفيد هنا أن نحاول بحث هذه الغريزة بحثا مختصرا لنعرف أسباب ضعفها فى هذه الجماعات حتى تمكن معالجة ما قد يوجد من أسباب هذا الضعف فى جماعتنا المصرية .

إذا حللنا هذه الغريزة تبين لنا أنها تقوم على ثلاثة أسس :

الأساس الأول : تماثل الأفراد أو تقاربهم إلى حد كبير فى الرأى والميول والطباع والعادات ، فإن هذا شرط أساسى فى تكوين الجماعة ، فاذا لم يتوافر لجماعة من الجماعات أسرع إليها التفكك والانحلال ، ولم تقو على مواجهة ما قد تتعرض له من الصدمات الشديدة . ومثال ذلك الجماعات التى ينقصها هذا التماثل أو التقارب بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية ، أو لتعدد الطبقات فيها وتباينها تباينا شديدا مع عدم التعاون بينها ، كأن يستأثر بعضها بالسلطة ، أو بالثروة أو بالثقافة ، أو بكل هذه الأشياء مما يدفع الطبقات المغبونة إلى التبرم بالمجتمع الذى تعيش فيه ، وعدم الإخلاص له . ومن أسباب نقص الاتفاق فى الميول والعادات كثرة الأجانب فى جماعة من الجماعات ، وبخاصة إذا اختلفت ميول هؤلاء الأجانب وعاداتهم اختلافا كبيرا عن عادات الجماعة وميولها ، أو تناقضت

معها ، أو كانوا هم المسيطرين على المظاهر الاجتماعية للحياة فى المدن الهامة بسبب سيطرتهم على حياتها الاقتصادية والتجارية . ففى هذه الحالة يعمد بعض ضعاف النفوس إلى تقليدهم بدون روية ولا تمحيص ، فى حين يتمسك البعض الآخر بعاداته وتقاليده فينشأ الاختلاف الهادم لكيان الجماعة .

لذلك نرى فى كل الجماعات الناضجة تماثلا كبيرا فى الأخلاق والعادات والميول بين جميع الطبقات : فهم يحيون أعيادهم القومية بطريقة واحدة أو طرق متشابهة ، لا يأنف الكبير منهم من الاندماج فى أوساط الصغار من قومه يشاطرهم شعورهم ومرحهم ، وهم يحافظون على تقاليدهم القديمة حتى ما قد يكون فقد بعض جماله ورونقه ولم يعد ينسجم مع التطور الفكرى والفنى ؛ وذلك لأنه يذكرهم بمثل عليا اتبعها أجدادهم ، أو أحداث هامة فى تاريخ نشأتهم كما ترى أيضا فى هذه الجماعات تعاونا وتضامنا بين طبقاتها فلا يختص بعضها بنعيم الحياة وعزها فى حين لا يكاد غيرها يجد من الحاجيات الضرورية ما يمكنه من العيش .

الأساس الثانى : ويمكن تقسيمه إلى قسمين :

القسم الأول — وهو عمل الهيئة الحاكمة فى الجماعة على النهوض بها وتوفير أسباب الطمأنينة لها فى الداخل ، والعمل على اكتساب مركز ملائم لها بين الجماعات الأخرى فى الخارج . وهذا يستدعى أن يتوافر لأعضاء هذه الهيئة الحاكمة كثير من الحكمة وبعد النظر لإعداد الخطط لما يعود على المجتمع بالخير الشامل لجميع أفراده مع الدأب والسعى لتقوية الروابط بين فئات الجماعة وأفرادها حتى يشعروا بأنهم سواء فى التمتع بمزايا هذا المجتمع وحتى لا تقوم بينهم أسباب الغيرة والتحاسد .

القسم الثانى — هو عمل الجماعة لصالح الفرد . وهو كالقسم الأول يؤدى إلى تعلق الفرد بباقى الجماعة و يشجعه على التضحية بجميع ما يمكنه فى سبيل خير الجماعة .

الأساس الثالث : ويمكن تقسيمه أيضا إلى قسمين :

القسم الأول — عمل الأفراد لصالح بعضهم بعضا ، وهو من العوامل التى تقوى صلات المحبة والتعاون والوئام بين الأفراد، وتساعد القائمين بأمر هذه الجماعة على الانصراف إلى تدبير أمورها الهامة . وإن أبسط مظاهره حسن معاملة الأفراد بعضهم بعضا، بأن تقوم هذه المعاملة على الأخوة والعطف والتعاون فلا يكون أساسها الغبن والخداع والأنانية مما يؤدى إلى التنافر والبغضاء وهدم نظام الجماعة .

القسم الثانى — عمل الفرد لصالح الجماعة، ومن مظاهره تطوع الفرد للدفاع عن وطنه، واشتراكه فى الجماعات التى تؤلف للنهوض بالجماعة من الوجهة الصحية أو الثقافية أو الاجتماعية الخ ، وبذله من ماله ما يساعد على رقى الجماعة وخيرها .

و إنا لنرى من تحليل هذه الغريزة — غريزة الجماعة — أن ما قامت عليه من الأسس يشد بعضه بعضا ، فاذا ضعف واحد أو أكثر من هذه الأسس ضعف الباقى. فاذا قصرت الهيئة الحاكمة فى القيام بواجبها نحو الجماعة ، أو اختصت فريقا منهم دون الآخرين بعنايتها ضعف عند الأفراد — أو عند فريق كبير منهم — الشعور بواجبهم القومى وانصرفوا عن تأديته . و إذا قصر الأفراد فى القيام بواجبهم نحو الجماعة ، أو نحو بعضهم البعض ، ضعفت الجماعة وتفككت روابطها ، وهكذا .

نخلص من هذا إلى أن الأساس الذى تقوم عليه نهضة أمة من الأمم هو شعور حكومتها وجماعاتها وأفرادها بالواجب القومى شعورا قويا ، والمسارعة لتأدية هذا الواجب فى إخلاص وغيرة اقتناعا بأن الفرد للجماعة والجماعة للفرد .

فما مبلغ شعور أفراد مجتمعنا المصرى بواجبهم القومى ، وما مقدار حرصهم على أدائه ؟ هذا ما أود تبيانه فى هذا المقال حتى يتبين مدى ما فى شعورنا بهذا الواجب من ضعف ، وما فى تأديتنا له من قصور ، وحتى يراجع كل منا نفسه فيعمل على استكمال ما فيه من نقص ، وحتى يلمس القادة وذوو الرأى مواطن الضعف فيعملوا فى تفكير و روية على إيجاد العلاج الناجع لها .

تشمل تأدية الواجب القومى نواحى كثيرة من جهود الأفراد ، وجهود الجمعيات الصغيرة التى تتألف داخل الجماعة . وهذه الجهود إما أن يقصد بها مباشرة إلى أداء الواجب القومى كتكوين الجماعات المختلفة لأغراض قومية ، و إما أن تؤدى بطريقة غير مباشرة إلى أداء ذلك الواجب كالموظف الذى يؤدى عمل وظيفته بأمانة و إخلاص .

إن كثرة الشعب المصرى ، وبخاصة الفلاح والعامل ، تتردى فى هاوية الفقر والجهل والمرض ، فهل قمت أيها المصرى الذى آتاك الله بسطة فى الجاه ، أو سعة فى الرزق ، أو رجاحة فى التفكير — هل قمت بما يفرضه عليك واجبك القومى نحو هؤلاء المستضعفين الجائعين ؟ هل بذلت من جاهك أو من مالك أو من عملك ما يشبع فقيرا أو يشفى مريضا أو يرشد جاهلا؟ هل أنت عضو فى إحدى الجماعات التى تعمل لبعض هذه الأغراض النبيلة؟ هل عاونت بقلمك أو لسانك على تشخيص الداء و وصف الدواء ؟

ثم هل تبذل ، أيها المصرى ، فى القيام بواجباتك الخاصة ما يجب أن تبذله من أمانة و إخلاص فتكون بذلك قد قمت بواجب آخر هو واجبك القومى الذى هو دين على الآباء والأمهات ، ودين على الأزواج ، ودين على الشبان والشابات ، ودين على الرئيس والمرءوس ودين على الصحفى والصانع والعامل وغيرهم من أصحاب المهن الأخرى .

فأنت أيها الأب! هل ترى أبناءك تربية تهيؤهم لأن ينشأوا رجالا عاملين؟ هل تفهمهم معنى الوطنية المصرية وما تقتضيه من واجبات نحو مصر؟ هل تنشئهم على الجلد والنشاط وتعودهم التفكير السليم وحب الاطلاع والتزود من الثقافة العامة؟ هل تربيهم على الاعتماد على النفس والاعتزاز بالكرامة فى غير غرور؟ هل تجلس إليهم بين آن وآخر تحدثهم ويحدثونك فتفهم بذلك أخلاقهم وطباعهم واستعدادهم فتشجع منها الحسن وتصلح الفاسد؟ هل تبث فيهم روح الجد والعمل المنتج والانصراف عن العبث واللهو؟ هل تربيهم على الرجولة والشهامة والتمسك بالدين والفضيلة؟ هل تقدم لهم من نفسك مثلا صالحا يقتدون به؟ وهل تنشىء بناتك على أن يكن أمثلة حسنة للسيدة المصرية الحديثة؟ هل تثقفهن وتهذبهن بما يلائم أنوثتهن وبما يجعل منهن عونا لأزواجهن لا عبئا ثقيلا على كواهلهم؟

وأنت أيتها الأم! هل تنشئين أطفالك على الطباع الحسنة والأخلاق الفاضلة ولا تملأين رؤوسهم بالخزعبلات والخرافات؟ هل تراقبين أولادك وتدلين أباهم على ما قد تلمسين فى سلوكهم من شذوذ أو اتجاه سيء؟ وهل أنت ممسكة بزمام بناتك أثناء تطورهن الجنسى، شديدة الرقابة عليهن، موجهة لهن توجيها صالحا؟ هل يشاهدن فيك المثل الصالح للزوجة والأم وربة البيت؟ وهل تسعين لأن تنال كل منهن نصيبا كافيا من الثقافة النسوية؟ أم أنت لاهية عن كل هذا بالتزاور والتبرج وتحين الفرص لإقامة الحفلات التى قد لا تتفق مع دينك وقوميتك؟

وأنت أيتها الزوج! هل تهيئين لزوجك جوا منزليا صالحا هادئا وتشجعينه على أداء واجبه القومى؟ أم أنت ترهقينه بإشراكك إياه فى أمورك المنزلية التى ليست من شأنه وبمطالبك المالية التى لا تقف عند حد معقول؟

وأنت أيها الزوج هل تحترم شخصية زوجك وكرامتها وتشجعها على القيام بواجبها؟ أم أنت تعاملها فى صلف وأنانية فتقتل شخصيتها لتستأثر أنت بكل السلطة؟

وأنت أيها الشاب المصرى! هل تعلم أنك عدة الحاضر لوطنك وذخيرة المستقبل؟ وهل تعلم أن وطنك محتاج لنشاطك الكامل وجهدك المتصل، وتضحيتك بكثير من لهوك وفراغك؟ هل تزود نفسك بالعدة الكافية من الصحة والخلق والثقافة؟ أم أنت فى شغل عن كل ذلك بالانصراف إلى ملذاتك والاقتداء برفاق السوء، فاذا لهوت فبأعراض الأسر وكرامتها، وإذا قرأت فالصحف البذيئة والقصص الرخيصة؟

وأنت أيتها الفتاة المصرية! هل تعدين نفسك لتكونى زوجا وأما صالحة، ولتكونى زينة مجتمعنا بخلقك وثقافتك وتفكيرك، فاذا تكلمت ففى الموضوعات الهامة، وإذا تحدثت ففى لباقة وكياسة؟ أم أنت لا تحسنين إلا التحدث فى تافه الأمور فى غير دراية

أو معرفة ؟ هل أنت مصرية فى تفكيرك وفى تقاليدك ؟ أم أنت تقدين هـذا عارا وتأخرا دون تفكير أو بحث ؟ وهل تفرقين بين الصالح وغيره فيما تقتبسين من الفتاة الغربية أم أنت تقلدينها فى حمق وتهور ؟

وأنت أيها العامل ! هل تسعى جهدك لإتقان مهنتك ؟ وهل تسلك طريق الشرف فى منافستك زملاءك ومعاملتك عملاءك ؟

وأنت أيها الموظف ! هل تبذل فى عملك ما يجب عليك من الدقة والنشاط والإخلاص؟ أم أن كل ما يعنيك هو إرضاء النظم واللوائح إرضاء شكليا ؟ وهل إذا كانت طبيعة عملك تجعلك على اتصال مباشر بالشعب توسع له صـدرك وتخلص فى قضـاء مصالحه ؟ أم أنت تعامله بكبرياء وعظمة حيا فى تضخيم سلطتك وتعظيم سطوتك ؟ وهل تتعاون مع زملائك لصـالح العمل ؟ أم أنت تقيم فى طريقهم العراقيل وتدس لهم عند الرؤساء لتنـال الحظوة دونهم ؟

وأنت أيها الموظف الكبير ! هل تقف كل جهودك على النهوض بالعمل الذى عهدت إليك رئاسته ؟ وهل تشرف على كل ما دق أو جل من المسائل؟ وهل تضرب المثل الصالح لمرءوسيك فى الإخلاص للعمل والمثـابرة عليه والمحافظة على المواعيد ؟ وهـل تعدل بينهـم وتشجع فيهم روح النشاط والجد والابتكار ؟ وهل ترعى كرامتهم وتحترم شعورهم ؟ أم أنت تعاملهم بصلف وتعسف فتزدرى رغباتهم وأفكارهم، وتبطش بهم كلما سنحت لك الفرصة فتقتل فيهم نشاطهم وكرامتهم وشخصياتهم ؟

وأنت أيها الصحفى ! هل تقدر شرف مهنتك وما لهـا من تأثير مباشر سريع فى توجيه فريق كبير من الشعب فلا تنشر إلا ما يوجهه التوجيه الصحيح الذى يفيد البـلاد ؟ وهل أنت شجاع فى الحق لا تبـالى أن تقول للحسن أحسنت وللسيء أسأت ؟ أم أنت لا تهتم إلا بمنفعتك المـادية و برواج صحيفتك ؟

هـذا ما وسعه المقـام من بعض نواحى جهود الفرد التى تتصل بطريق غير مباشر بالواجب القومى ، والله أسأل أن يوفق كلا منا لأداء واجبه نحو نفسه وأسرته و بنى وطنه جميعا .

دكتور
محمد فؤاد السيد
طبيب لبنان طره